

الفصل الأول

الفتح الإسلامي لمصر

معرفة العرب بها :

كان العرب يعرفون مصر من قديم الزمان ويتبادلون معها التجارة ، وكانت جيوش المصريين تجتاح شمال الجزيرة العربية في حروبها المتعددة في الشام وما وراءها فتعلم شيئاً عن هذه البلاد وأهلها وتعود منها بأسرى ، وكانت بعض الأمم الآسيوية تغزو مصر ، وتمر في طريقها بهذه البلاد ، وتستعين بأبنائها في غزواتها لمصر ، ومن هؤلاء أمة الفرس التي غزت مصر في عهد قمبيز سنة ٥٢٥ ق . م ، وفي أواخر الدولة الرومانية سنة ٦١٧ م . وقد يستقر بها بعض هؤلاء العرب الذين يجيئون أسرى أو مع الغزاة ، وقد يرجعون إلى قومهم فيحدثونهم بما رأوا وما علموا عن مصر ، ومن المؤرخين من يجعل ملوك الهكسوس (الرعاة) عرباً ، وقد حكموا البلاد زمناً قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً ، بل إن زنوبيا ملكة تدمر قد غزت هذه البلاد سنة ٢٦٨ م وقاومها الرومان ، ولكنها هزمتهم ، وحكمت البلاد عامين ثم أخرجوها منها .

وصلة النسب بين مصر والعرب موجودة من قديم ؛ فقد تزوج إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر ، فولدت له إسماعيل عليه السلام ، وذهب بها إلى الحجاز فأسكنها^(١) هي وابنها بواد غير ذي زرع ، ودعا الله أن يجعل أفئدة من الناس

(١) النجوم الزاهرة ص ٢٣ ، ص ٢٩ .

تهوى إليهم . فاستجاب الله دعاءه وبارك في ذريته ، وكانت العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام .

والقرآن الكريم قص على العرب شيئاً من تاريخ مصر ، في قصة يوسف وفي قصة موسى عليهما السلام ، فعرفوا في عهد الرسول بعض تاريخها القديم من مصدر سماوي . وعرفوا أن التجارة كانت متصلة بين الشام ومصر في عهد يوسف عليه السلام كما كانت في غيره من العهود ، وأن السيارة وجدته فأسروه بضاعة ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ، وعرفوا أن « فرعونَ علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً » و « استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق » ، « ونادى فرعونُ في قومه قال : يا قوم أليس لي مُلكُ مصرَ وهذه الأنهار تجري من تحتي » ، إلى غير ذلك من الأخبار التي حدسهم بها القرآن الكريم .

وكانوا يستوردون القباطى من مصر قبيل الإسلام وهي ثياب رقيقة من الكتان تنسب إلى قبط مصر ، وقيل إنهم كتبوا عليها المملقات^(١) .

وأشهر ما كان من اتصال في مبدأ الإسلام : أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى المقوقس ، عظيم القبط في مصر ، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة سنة ست من الهجرة ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٩١ .

ولم يسلم المقوقس ، ولكنه رد على النبي صلى الله عليه وسلم يقول (١) :
« أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وقد علمت أن نبياً
بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رُسُلك ، وبمشت إليك
بجارتين لهما مقام في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ،
والسلام » .

وكانت إحدى الجاريتين مارية القبطية ، التي تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم
وولدت له ابنه إبراهيم عليه السلام ، وماتت (٢) سنة ٦٣٣ م فلم تشهد فتح
العرب لمصر .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم تنبأ بفتح العرب لمصر وأوصى الفاتحين
بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً .

وهناك قصة رواها الكندي (٣) والقريزي عن قدوم عمرو بن العاص إلى مصر
في الجاهلية ، واشترأكه في حفل سنوي خاص بأولاد الذوات ، ووقعت في حجره
كرة مخصوصة ، وكان من وقعت في حجره يحكم البلاد يوماً من الأيام ، وسوف
نذكرها عند الكلام على القصص .

وهذه القصة الأدبية الطريفة لها دلالتها على وجود الصلة بين العرب ومصر .
وهي صلة طبيعية كانت تسمح بها — أو تفرضها — ظروف الجوار ، وشهرة مصر
فيما جاورها من البلاد بالخصب والثروة والحبوب والصناعة . فلما فتح الله للمسلمين
بيت المقدس فكر عمرو بن العاص في فتح مصر . كي ترفرف عليها راية الإسلام ،
كما رفرقت من قبل في الشام .

(١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٦٧ — وهناك صورة أخرى للرد في الصفحة نفسها يظهر
المقوقس فيها حسن استعداده للإيمان ، وحسن ظنه بالرسول .
(٢) فتح العرب لمصر ص ١٢٦ عن حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٣ .
(٣) الولاة ص ٦ وفي خطط القريزي ج ١ ص ١٥٨ .

مسير عمرو إليها :

يحدثنا المؤرخون أن عمرو بن العاص كان صاحب الفكرة في فتح مصر لسابق معرفته بها ، وأنه قد وصفها لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وحدثه عن ثروتها وسهولة غزوها . وأن عمر وافق على ذلك^(١) ، وأرسله في أربعة آلاف مقاتل ، وقال له : « سيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله تعالى ؛ فإن أنت أدركت كتابي أمرت فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك ، واستعن بالله ، واستنصره^(٢) » .

وسار عمرو ففتح البلاد . واختلف المؤرخون في سنة دخوله ، وفي كتاب عمر إليه وفي عدد رجاله ، ولكنهم لم يختلفوا في أنه منفذ تلك الفكرة الجريئة ، وأن الله قد نصر فئته القليلة ، وأيده في خطواته ، وكانت مخوفة بالأخطار .
دخل عمرو مصر في أواخر سنة ١٨ هـ ، فسار على بركة الله ، وقاومه الروم في الفرما وبلبيس وأم دنين (عند عين شمس) ، ثم حاصر حصن بابليون ، وأرسل إلى عمر يستمده وخرج إلى الفيوم فلم يقلح في الاستيلاء عليها ، ثم رجع فوجد المدد بقيادة الزبير بن العوام ، فاستطاع أن يحاصر بابليون حصاراً شديداً حتى سلم الحصن ، ثم تقدم إلى الإسكندرية ، وفتح في طريقه إليها عدداً من القرى والمدن ، ثم وصل إليها ففتحها بعد حصار شديد سنة ٢١ هـ .

(١) في الولاية والقضاء للكندي ص ٨ أن عمرو بن العاص تقدم بأصحابه إلى مصر بغير إذن ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : « من عمر بن الخطاب إلى العاصي ابن العاصي : أما بعد فإنه بلغني أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم ، وإنما معك نفر يسير . ولعمري لو كان تسلك أمك ما تقدمت ، فإذا جاءك كتابي هذا فإن لم تكن بلغت مصر فارجع » . فخدم عمرو ربه لأنه كان جاوز الحدود وصار في مصر .

(٢) حسن المحاضرة ١ / ٤٦ خطط المقرئ ص ٢٨٨ .

وكان في تسليم بابلين والاسكندرية أكبر مشجع للعرب على فتح بقية البلاد؛ وظلت تابعة للخلافة مدة قرنين ونصف من الزمان كانت متأثرة فيها بالبحار أو الشام أو العراق ، ثم استقل بها أحمد بن طولون وبنوه زمنا (٢٥٤-٢٩٢ هـ) فكانت لها شخصية شبيهة مستقلة في عهد الطولونيين ، ولكنها عادت إلى العباسيين . ثم استقل بها الأخشيديون سنة ٣٢٨ هـ حتى سنة ٣٥٨ هـ . ثم قامت بها خلافة فاطمية تنافس خلافة العباسيين ، وحاضرة تدانى بغداد ثم ترشها . وصارت لها مقوماتها السياسية والأدبية والدينية .

عوامل انتشار اللغة العربية في مصر :

تأثر لسان العرب في مصر بأمرين ساعدا على نشره ، وتعلم الناس له ؛ هذان الأمران هما : الإسلام ، وهجرة القبائل العربية إليها .

سأ أما الأمر الأول وهو الإسلام ، فكان الغاية الأولى من فتح عمرو بن العاص لها ، وكان المسلمون يدعون إلى الإسلام إذا ذهبوا لفتح بلد ، فإذا أبى أهل البلد قبلوا منهم الجزية ، فإذا أبوا قاتلهم حتى يعطوها ؛ وكذلك كان حالهم في مصر . فأسلم كثير ؛ لما في ذلك من مزايا ، كالمساواة في الإسلام والإعفاء من الجزية ، وما تحمله من معنى الخضوع والحماية .

« وليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد الدنيا وزينتها ، فإنه مما لا شك فيه أن كثيراً منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفاتحين ، حتى يكون له ما لهم ، وينجو من دفع الجزية ؛ ولكن هذه الطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية ، وأما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ؛ إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ... ومنذ بدا ذلك

لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بداعته وطمأنينته وبساطته^(١) .

وكان دخول الناس في الإسلام مبكراً ، وكان منهم الروم والقبط وقد أسلم « بعض عظماء الروم الملكانيين مثل « ميناس » حاكم مصر السفلى ، و « شنوده » حاكم الريف ، و « فيلوخينوس » حاكم أركاديا (الفيوم)^(٢) .

ومن أقدم من دخل في الإسلام جماعة من القبط ، أخذوا بعد صلح بابليون « يختارون الإسلام ، ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ؛ فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين في شرف محلمهم ، ويحملهم إخوانهم في كل شيء ، ويسهم لهم في الفيء ، ولا يفرض عليهم الجزاء ، فكان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام ، لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحناً ، وحطم يقينهم باضطهاده . وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم ، بعضهم جنود وبعضهم ممن حل في مصر ... وكان هؤلاء المسلمة يتظاهرون بأنهم من أشد الناس في أمر الدين ، فيدفعهم ذلك إلى مساعدة إخوانهم العرب المسلمين على استصفاء أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم ، وصاروا يستبيحون لهم ، ويصفونهم بأنهم أعداء الله^(٣) .

وأسلم طائفة كبيرة من الأسرى عند مدينة بلهيب ، وقد جاء إلى عمرو وهو يحاصرها رد من الخليفة عمر بإقرار صلح الإسكندرية ، فقرأ عمرو كتاب الخليفة على الناس . وقد جاء فيه أن يخير الأسرى ، فمن رضى الدخول في الإسلام منهم أطلق سراحه ، وصار للمسلمين أخاً^(٤) .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز كان له وال على مصر كتب إليه يقول : إن

(١) فتح العرب لمصر ص ٣١٤ (٢) ص ٣٨٤

(٣) ص ٢٤٣ (٤) ص ٣٠٣

الإسلام أضر بالجزية حتى لقد نقص عشرون ألف دينار من عطاء أهل الديوان . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز كتاباً شديداً قال فيه^(١) :

« أما بعد فقد بلغنى كتابك . فقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أصرت رسولى أن يضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك . فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ، ولم يبعثه جانياً ، ولعمري كعمري أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه . »

ويستدل بتلر^(٢) على كثرة من أسلم بتناقص الجزية ، لأنها كانت في عهد عمرو اثني عشر ألف ألف دينار (١٢ مليوناً) وصارت في عهد ابن أبي السرح أربعة عشر ألف ألف دينار (١٤ مليوناً) ، ثم صارت في عهد معاوية خمسة آلاف ألف (٥ ملايين) ، بعد أن أسلم عدد عظيم من القبط ، وصارت في خلافة الرشيد أربعة آلاف ألف (٤ ملايين) .

وهؤلاء دخلوا في الإسلام بلا ضغط ولا إرهاب ، وكان القبط أحراراً في عقيدتهم كما يقول مؤرخ منهم اسمه حنا النقيوسي (وهو لا يتورع عن أن يصف الإسلام بأبشع الأوصاف ويتهم من دخلوا فيه بأشد التهم^(٣)) ، يقول عن عمرو : ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئاً من النصب أو النهب .

وخلاصة ما تقدم أن كثيراً من الروم والقبط أسلموا منذ أول الفتح راغبين ، وأن عددهم كان يزداد شيئاً فشيئاً ، وأن إيمانهم بالإسلام كان عظيماً ، وأنهم ربحوا كثيراً من وراء اعتناق الإسلام .

ويترتب على ذلك انتشار اللغة العربية بينهم ، لأنها كانت ضرورة لازمة لفهم

(١) خطط القرظي ج ١ ص ٧٨

(٢) فتح العرب لمصر ص ٤٠٣

(٣) ص ٣٨٦ المصدر نفسه .

الدين؛ ومن الأئمة من يجعلها فرضاً في بعض العبادات مثل الخطابة والصلاة . وإذا كان هؤلاء المسلمون كما وصفهم « بئتر » ، من رغبة في الإسلام وحب له ، فنتيجة ذلك أن يكفوا على دراسته ، ووسيلتهم الأولى هي تعلم لغته ، يتعلمونها للتفاهم مع إخوانهم المسلمين ، ويتعلمونها ، ويتعلمها غيرهم من القبط لأنها لغة الفاتحين السادة ، والضرورة تدعو إلى التفاهم معهم .

أما الأمر الثاني المهم في انتشار اللغة العربية بمصر فقد كان نزوح العرب بعد الإسلام من جزيرتهم أفراداً وجماعات إلى هذه البلاد وإقامتهم فيها ، ومخالطتهم لسكانها ، وانتشارهم في البلاد من أقصاها إلى أقصاها^(١) . وخلاصة القول في هذه الهجرات :

١ — أنها ابتدأت منذ الفتح العربي واستمرت بعده قروناً :
جاء في الولاة والقضاة أن عمرو بن العاص قدم مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة ، ثلثهم من « غافق »^(٢) . وأكثر من ثلث الجند كانوا من « عك »^(٣) .
ثم نزلت همدان بالجيزة وكتب عمرو في شأنهم إلى الخليفة ، فرد عليه أن يجمعهم معه ، فإذا أبوا بنى عليهم حصناً ، ففعل ؛ وسكن الجيزة مع همدان نافع وذو أصبح وغيرهم ، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع^(٤) . وفي هجرة بيلي يقول القرظي :

(١) تشير إلى ذلك كتب الخطط مثل خطط القرظي في « ذكر نزول العرب مصر واتخاذهم الزرع معاشاً وما كان في نزولهم من الأحداث ج ١ ص ١٢٨ » ومثل كتابه « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » وفي « صبح الأعمى » جزء ٣ ص ٣٣١ بيان عن هذه الهجرات من جزيرة العرب واستقرار أهلها في نواحي مصر كما تجد في كتاب « الولاة والقضاة » لاسكندى وغيره حديثاً عن هذه القبائل غير مقصود لذاته ، يذكر فيه منازلها في مصر أو مواطنها الأولى في جزيرة العرب ، أو ظروف هجرتها ، أو تنقلها من مكان إلى مكان في البلاد وهكذا .

(٢) ص ٨

(٣) فتح العرب ص ١٧٦

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٩ وخطط القرظي — القسطنطينية

« وبلى قبيل عظيم فيه بطون كثيرة . وكانت بلى بالشام ، فنادى رجل من بلى بالشام بالقضاة ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسكتب إلى عامل الشام أن يُسّر تلك قضاة إلى مصر ، فنظروا فإذا « بلى » تلك قضاة ، فسيروا إلى مصر^(١) ويقول : « وجدنا من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص^(٢) » .

ولما عرض القرزى لقيس قال^(٣) : « وبنو سليم من قيس . وكان نزول سليم وعدة قبائل من قيس في أرض مصر سنة تسع ومائة ، وأمير مصر إذ ذاك الوليد ابن رفاعه بن خالد بن ثابت الفهمي ، ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من قنهم وعدوان ، فإنهما من قيس في جديلة .

وعن الهيثم بن عدى قال حدثني غير واحد أن عبدة الله بن الحبجاب لما ولاه هشام مصر قال : ما أرى لقيس حظا فيها إلا للناس من جديلة — وهم فهم وعدوان — فكتب إلى هشام : إن أمير المؤمنين أطل الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونعمشهم ورفع من ذكرهم ، وإنى قدمت مصر ، فلم أر لهم فيها حظا إلا آياتا من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ؛ وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب إليه هشام : يترك الأمر إليه ، فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومائة أهل بيت من بنى عامر بن صعصعة ، ومائة أهل بيت من هوازن ... فأزلهم بلبيس ، وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلا ، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، فكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر ، ثم أمرهم باشتراء

(٢) ص ٣٣ البيان والإعراب .

(١) ص ٣٧

(٣) ص ٦٤ البيان والإعراب .

الخيول ، فجعل الذي يشتري المهر لا يمكث إلا شهراً حتى يُركب ، وليس عليهم
مثونة في أعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مراعيهم .
فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية فكانوا على
مثل ذلك . فأقاموا سنة فأتاهم نحو ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ، حتى إذا كان
زمن مروان بن محمد ، وولى الخوثر بن سهيل الباهلي مصر ، مالت إليه قيس ، فمات
مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالتوا . وقدم عليهم من البادية من قدم ،
فأحصوا في ولاية محمد بن سعيد ، فوجدوا خمسة آلاف ومائتين ، ما بين صغير وكبير .
ويمين زمن قدوم أولاء الكنز فيقول^(١) أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون
اليمامة وقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين
في عدد كثير ، وانتشروا في النواحي ، ونزل طائفة منهم بأعلى الصعيد ، وسكنوا
بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها . وكانت « البجة » تشن الغارات على
القرى الشرقية في كل وقت حتى أخربوها ، فقامت ربيعة في منعهم من ذلك حتى
كفوم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب العلابي ، فكثرت أموالهم
واتسعت أحوالهم ، وصارت لهم مرافق ببلاد « البجة » واختطوا قرية تعرف
بالتامس ، وحفروا بها آباراً .

وسننيس من طي ، نزلوا بالبلاد سنة ٥٤٤٢هـ ، وثلثة وطائفة من جرّم جاءوا
إلى هذه البلاد زمن صلاح الدين . وعدة القبائل التي كانت بمصر عند مجي الغز
مع أسد الدين شيركوه كثير^(٢) .

٢ — وزح المهاجرون من أماكن متفرقة في بلاد العرب . فقيس وبيلي من
الشام ، ورهط كلب بن عدى من الحجاز ، وقريش من الحجاز من مكة ، والأنصار

(١) البيان والإعراب ص ٤٨

(٢) ص ٣٣

من المدينة ، ولحم وجذام وبنو هلال بن عامر وجهينة من اليمن^(١) ، وأولاد الكنز أصلهم من اليمامة^(٢) وهكذا .

٣ - أما منازلهم بأرض مصر فهي كثيرة كذلك ، وتكاد تشمل البلاد كلها من أسوان إلى البحر الأبيض ، مثل سنبس الذين نزلوا بالبحيرة في ديار بني قرة^(٣) ، والعمريين الذين نزلوا البرلس^(٤) ، وجذام الذين سكنوا بالحوف^(٥) ، وسعود جذام الخمسة الذين نزلوا من منية عمر إلى زفيتا^(٦) .

ونزل ببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب : ففي بلاد أسوان وما تحتها بنو هلال ، وفي بلاد إخميم وما تحتها بلي ، وفي بلاد منفلوط وأسيوط جهينة ، وفي بلاد الأشمونين قريش . وكانت دور بني سهم حول جامع عمرو بن العاص من الفسطاط إلى أن دثرت^(٧) . وكانت عيذاب لبني يونس من ربيعة ، ملكوها عند قدومهم من اليمامة ، فجری بينهم وبين بني بشر حروب أنهزموا فيها ، ومضوا من عيذاب إلى الحجاز^(٨) . ثم وقعت حروب بين بني بشر قتل فيها اسحق بن بشر . فأحضرها إليها من بليس الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي^(٩) فنزل إلى أسوان وأنشأ مكانه المعروف بساقية شعيان .

وكانت للعرب عدة إقطاعات منها هريبط وتل بسطه وغير ذلك . وكان إقطاع ثعلبة جميعه في مناشير جذام . وإنما السلطان صلاح الدين وسع لثعلبة في بلاد جذام .

ونزل بالصعيد طائفة من الأنصار منهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحرى منفلوط .

(١) البيان والإعراب ص ٣٨	(٢) ص ٤٨	(٣) ص ٢٥
(٤) ص ٢٦	(٥) ص ٢٩	(٦) ص ٣٢
(٧) ص ٤٨	(٨) ص ٤٩	(٩) ص ٤٩

٤ - وبمضم نزل في أكثر من جهة من مصر ، وقد تشمل القرية الواحدة عدداً من البطون : فجذام نزلت في أما كن متفرقة وامترج من كان منهم مصر بولد زيد ، وهم بحرى الخوف إلى ما يلي أشموم ، وكانت قرارة بنى سعد تل طنبول إلى نوب طريف ، ومنهم بدقدوس ودمريط ، وضواحي القاهرة إلى أطراف الشرقية ، وبالإسكندرية جماعة من لحم وجذام^(١) .

وكان بنو هلال أهل بلاد الصعيد إلى عيذاب . وبأخيم منهم بنو قرّة ، وبساقية قلته بنو عمرو . وبأصفون وإسنا بنو عقبة وبنو جميلة ، ومن بنى غافق بطن يعرفون بالقرافة ، سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أما كنهم . وتفرقوا في البلاد المصرية ، وصار مكانهم مقبرة للمسلمين فسميت المقبرة في مصر بالقرافة ، نسبة إليهم^(٢) .
وجهية نزلت في أما كن متفرقة^(٣) وقريش كذلك .

وبنو الليث من كنانة سكان ساقية قلته وناقيهم فيما يليها^(٤) . وعوف بن سليم في بلاد الصعيد ، وفي الفيوم والبحيرة^(٥) . وفزارة قيس منها جماعة بالصعيد وجماعة بضواحي القاهرة في قليوب وما حولها^(٦) ، ولحم نزلت أما كن متعددة^(٧) وفي الدقهلية والمرتاحية عرب كثيرون وبنو سهم منهم أشقات بالصعيد^(٨) .

٥ - بل إن بعضهم كان يلحق بالقبائل لقلة عدده ثم تأتي ظروف فيستقلون ؛ يقول الكندي^(٩) :

ولما رأى بشر بن صفوان افتراق قضاة كتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الإذن له في استخراج من كان منهم في القبائل فيجعلهم دعوة منفردة ، فأذن له

(١) ص ٣٥

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٨ الأدب المصدر الإسلامى ص ١٨

(٣) ص ٣٨ (٤) ص ١٥ (٥) ص ٥٢

(٦) ص ٥٣ (٧) ص ٦١ - ٦١ (٨) ص ٤٧

(٩) ص ٧١ الكندي

يزيد بن عبد الملك بذلك ، فأخرج مهرة من كندة ، وأخرج تنوخا من الأزدي ، وأخرج آل كعب بن عدى التنوخي من قريش ، وأخرج جهمينة من أهل الرابية ، وأخرج خشينا من لحم فجملهم مع سائر قضاة دعوة منفردة^(١) .

وتدوين بشر هذا هو التدوين الرابع ، لأن الأول تدوين عمرو بن العاص ، والثاني تدوين عمرو بن عبد العزيز ، والثالث تدوين قرّة بن شريك ، والرابع هو هذا ، ولم يكن بعد هذا في الديوان شيء له ذكر إلا ما كان من إلحاق قيس فيه زمن هشام . وأشياء أحدثها المسودة من أرباعهم التي أحدثوها منه^(٢) .

٦ — وأما أعمالهم في مصر فكانت متعددة ، وأول عملهم كان الحرب والمرابطة ، ثم تملكوا وزرعوا ، أو اشتغلوا بغير ذلك .

كأولاد الزبير — رضى الله عنه — صاروا أكثرهم صاحب معايش وأهل زرع وفلاحة وماشية وضرع^(٣) .

٧ — وكانت هناك هجرة من الغرب أيضاً من لواتة ، ومن أشهر قبائلها هواة ، وقد نزلت منازل متفرقة ، فنزل بعضهم بالبحيرة ، ونزل بالصعيد جماعة ، أنزلهم الظاهر سنة ٧٨٢ هـ وذلك أنه أقطع إسماعيل بن مازن ناحية جرجا وكانت خراباً فعمرها وأقام بها^(٤) . وفي المنوفية من لواتة وأحلافهم كثير .

كثرة العرب بمصر :

ومما يدل على كثرة العرب بمصر أن أعدادهم كانت كبيرة في الحوادث والحروب ، فقد جاء عمرو إلى مصر ففتحها بأربعة آلاف ، واستمد أمير المؤمنين عمر

(٢) ص ٧١ الكندي

(٤) ص ٦٠

(١) ص ١٠٢ الكندي

(٣) ص ٤٧

فأمده بالزبير بن العوام على اثني عشر ألفاً^(١) وتنابت الجنود بعد ذلك كلما احتاج إليهم ، وكانوا مرابطين حتى مات عمر رضى الله عنه ، وكان من سياسة عثمان ألا يمنع الناس من تملك الأراضي فاستقر قوم من العرب في مصر ، ولكنهم كانوا بالفسطاط وما حولها والإسكندرية وما يتلوها^(٢) ثم كثرت العرب حتى أن عتبة عقد لعقمة بن يزيد العطيفي على الإسكندرية^(٣) في اثني ألفاً من أهل الديوان يكونون بها رابطة ، فكاتب عقمة « يشكى » قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم^(٤) .

وبلغ من قوتهم أن انتصروا على الروم في ذات الصواري وهي أول حرب بحرية لهم ، ثم غزوا بعد ذلك في البحر فغزا عقبة بن نافع رودس^(٥) فكم كان عدد جند المسلمين في تلك الغزوات ؟ .

ومن قصيدة عبد الرحمن بن الحكم التي قالها في فتح مروان لمصر ترى أن كثيراً من القبائل كانت بمصر مع عدوه بن حجندم والى مصر لابن الزبير وقد قتل يومئذ خلق كثير من الجانبين ، يقول عبد الرحمن :

وجاشت لنا الأرض من نهوم بحبيّ نجيبٍ ومن غافقٍ
وأحياءٍ مذحجٍ والأشعرين وحسبٍ كالحب المحرق
وسدت معافقُ أفق البلاد بمرعد جيش لها مبرق^(٦)

وفي قتل الأكدري بن حاتم على يد مروان يقول الكندي^(٧) : « وتنادي الجند قتل الأكدري ! فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه ، فحضر باب مروان منهم .

(١) ص ٩٠٨ الكندي عن ابن وهب عن لهيعة عن يزيد ابن أبي حبيب أن عمرو ابن العاص قد بثلاثة آلاف وخمسمائة نلهم من غانق ، ثم مد بالزبير بن العوام في اثني عشر ألف .

(٢) الكندي ص ٣٦

(٣) البيان للمقرئ ص ٤٧

(٤) ص ٣٨ الكندي .

(٥) خطط المقرئ ج ٢ ص ٨٧

(٦) ص ٤٦ .

(٧) الولاية والقضاء .

زيادة على ثلاثين ألفاً» وكان الأكدري سيد نخم وشيخها ، فإن كان هذا العدد من أنصاره فهو كثير ، وإن كان من نخم وحدها فهو دليل أقوى على كثرة العرب بمصر ونحن ما زلنا في سنة ٦٥ هـ . ثم إن امرأته كانت معه فهذا دليل الإقامة والاستقرار .

وعبد العزيز بن مروان ينشئ مدينة أخرى غير الفسطاط هي « حلوان » ويحيطها بأبهة الأمانة ، وينزل بها معه كثير من الناس (١) .

وأدل من ذلك على كثرة القبائل بمصر ما يرويه الكندي (٢) عن كرم عبد العزيز بن مروان قال : وكان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره ، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل ، تحمل على العجل إلى قبائل مصر وقد استأذن الحر بن يوسف من هشام في أن يبني الناس في أرض انكشاف عنها النيل ليست لمسلم ولا لمعاهد ، وهم مضطرون إليها ، فأذن له في بناء قيسارية هشام ، فابتدأ فيها في رجب سنة ١٠٧ هـ ، وهذا أيضاً دليل الاستقرار والعمل عليه وضيق البلاد بالناس .

وقد انتجع العرب ريف مصر من أول الفتح (٣) فكان إذا جاء الربيع تفرق العرب في البلدان فيذهب آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد إلى منوف ووسيم ، وكانت هذيل تذهب إلى بيا وبوصير ، وتذهب عدوان إلى بوصير . وكانت فهم تذهب إلى « إتريب » وعين شمس ومنوف الخ وفي عهد العباسيين في سنة ١٦٧ خرج من الحوف قيس واليمن على موسى بن مصعب (٤) ، ونسمع بقيس في ثورات كثيرة بالحوف منها ثورتهم التي أدت إلى مقتل عمير بن الوليد سنة ٢١٤ هـ (٥) .

(٢) ص ٥١ .

(١) ص ٤٩ .

(٤) ص ١٢٥ الكندي .

(٣) خطط القرظي ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٥) ص ١٨٦ الكندي .

ونسلم بلخ في ثورة الجرّوى حوالي سنة ٢٠٠ ، وفي ثورة الصوفية
والأندلسيين بالإسكندرية فقد عاضدوا هذين في ثورتهم على عمر بن هلال^(١) ، ثم
فسد أمر لخم والأندلسيين ووقعت بينهم حرب انهزمت فيها لخم^(٢) .
ونسلم بمدج تحارب الأندلسيين^(٣) ويُفكّبون وينفيمهم الأندلسيون من
الإسكندرية ونسلم بهم بمدون القبط بسخا في خروجهم على الجرّوى سنة ٢٠٢
وفي ثورة على الأفشين سنة ٢١١^(٤) .

ونسلم في هذا التاريخ الطويل بحروب وانتقالات جيوش ، وثورات من
أهل البلاد في أنحاء مختلفة . ويذهب الجند لإخادها وقيمون بين الناس لحفظ
الأمن ، وقد يتصلون بهم في البيع والشراء ويشاركونهم في الدور والغلات
ويجمعون منهم الخراج والجزية ، ويقضون بينهم بالعدل في الخصومات ، ويحدثونهم
بلسان عربي ، ويخاطبهم هؤلاء بهذا اللسان ، لأنه لسان الدين ، ولسان الحاكمين .
ومما شجع العرب على الاستيطان أو دفعهم إليه دفعا أن المعتصم قطع إعطياتهم
وأسقطهم من الديوان وأرسل بذلك إلى كيدر^(٥) واليه على مصرفئار عليه يحيى بن
الوزير الجرّوى في جمع من لخم وُجدام ، وقال : هذا أمر لا تقوم في أفضل منه
لأنه منعنا حقنا وفيتنا ، فهزمهم مظفر بن كيدر في تنيس سنة ٢١٩ هـ^(٦) .

ونحسن باشتراك المصالح بين القبط والمسلمين ونصرة بعضهم لبعض ، فقد
نصرت مدج القبط في ثورة سخا سنة ٢٠٢ هـ ، ولما ثار المصريون على المأمون
سنة ٢١٦ هـ كان القبط والمسلمون جنبا إلى جنب^(٧) .

أثر هذه الهجرات في اللغة

وكان من هذه الهجرات ، والتنقل بين الريف والحضر ، وفي السلم والحرب

(١) ص ١٦٢ الكندي . (٢) ص ١٦٣ (٣) ص ١٦٤
(٤) ص ١٩١ (٥) ص ١٩٣ (٦) ص ١٩٤ (٧) ص ١٩٠

واختلاط القبائل المختلفة اللهجات بعضها ببعض ، وبأهل البلاد مسلمين وغير مسلمين :

١ — أن صارت العربية لغة البلاد في حديثها وأدبها وعلماها ؛ وإذا كانت القبطية ظلت أزماناً تستعمل في بعض الجهات لغة حديث وكتابة وعبادة ، فإن مغالبة العربية لها ، واستماتة هذه بكثرة المهاجرين ، وكثرة من أسلم من أهل البلاد أضعفتها شيئاً فشيئاً حتى خلا الميدان للغة القرآن الكريم . وكانت مزاحمة العربية مبكرة ، فإن ساويرس ابن القفح كتب كتابه « عن تاريخ حياة البطارقة » حوالي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وقال في مقدمته التي كتبها بنفسه إنه كان يلجأ إلى بعض القبط ليترجموا له الوثائق اليونانية والقبطية إلى العربية ؛ إذ أن اللغتين المذكورتين كانتا ، حتى عند ذلك الوقت ، غير معروفتين لأكثر المسيحيين ، ومنه يظهر مدى الاضمحلال الذي أصاب اللغتين (١) .

والحق أن اليونانية التي كانت لغة علم ودولة ، قد ضعفت بدخول الإسلام مصر ، وإن ظلت مستعملة قليلاً في بعض المدارس بالإسكندرية وفي بعض الأديرة المملوكية .

وأما السريانية فكانت لغة العلم وبخاصة الطب ، وظلت مستعملة حتى جاء عهد العباسيين ، فارتحلت إلى مدارس شمال العراق والشام وفارس وأودعت العربية ذخائرنا الأصلية والمنقولة ، وبخاصة ما كان عن اليونانية .

٢ — وحلت بالبلاد لهجات عربية متعددة مع هؤلاء النازحين تشبه لهجاتهم في موطنهم الأول ، وتأثرت في وطنها الجديد بما جاورها من اللهجات العربية ، وباللغة المحلية التي كانت قبلها في ذلك الوطن . أما مدى تأثيرها فيختلف على قدر الاختلاط بغيرها ، وكثرة من يجاورها .

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٩ — ٣٠

٣ — ولم تتأخر العربية عن استخدام بعض الألفاظ والكلمات المحلية أو اليونانية إذا دعت إليها حاجة ، ولا عن الإكثار من كلمات عربية يكثر مدلولها في مصر مما يتصل بالنيل والخضب والزراعة والحصاد والقيضان والمقاييس والخلجان والترع وغير ذلك .

ثم هؤلاء القوم الذين ورثوا البلاد من بعد أهلها ، وبدلوا دينها ولفتها ، وصاروا أصحاب تاريخها وحضارتها قد مهدوا للأدب العربي سبيلا إليها ، حتى صار الأدب الوحيد فيها بعد حين . وقد تنوعت فنونه ، وتعددت رجاله ، وكثرت الرحلة به ، وعظم الجزاء عليه ، وهذا حديثنا عنه في الفصول التالية .